

الهوية الافتراضية بين الذات الاصلية والذات الزائفة قراءة في الاغتراب الذاتي للمتلاعبين بالهوية عبر الفضاءات الافتراضية من منظور إريك فروم

أ.ة غمشي الزهرة

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

" ليس هناك على وجه التقريب جانب من جوانب الحياة المعاصرة لم تتم مناقشته من خلال مفهوم الاغتراب وأيا كانت الدرجة التي وصل إليها الاغتراب في مسار اعتباره السمة السائدة لهذا العصر فإنه من المؤكد انه يبدو بمثابة شعار العصر"
ريتشارد شاخت

مقدمة:

يعيش الانسان اليوم عصر الموجة الثالثة كما سماها ألفين توفلر؛ عصر الكوخ الالكتروني القائم على تكنولوجيا الانترنت؛ عصر أصبح الانسان فيه لا يسعى إلى الاقتراب من البعيد إلا ابتعادا عن القريب، إنه لا يدنو من الغائب إلا فرارا من الحاضر ولا يتواصل مع البعيد إلا هروبا من القريب، إنه لا يتصل إلا لكي لا يتواصل حسب تعبير عبد السلام بنعبد العالي، واقع يتجلى بوضوح من خلال "المجتمع الافتراضي" الذي ذاع صيته مع ظهور الشبكات الاجتماعية الافتراضية والذي كان بمثابة الفضاء الجديد، الذي صاحب ظهوره تغيرات اجتماعية كثيرة شملت العلاقات بين الأفراد، قيمهم، اتجاهاتهم ومختلف الأنشطة التي غيرت من طبيعة البيئة الفيزيائية والاجتماعية التي يعيش فيها الفرد، وعززت أكثر ازمة الانسان المعاصر التي يمثل الاغتراب أحد أبعادها فبعدها نسي مفهوم الاغتراب لعشرات السنوات فإنه قد أصبح من جديد متداولاً مؤخراً، بعد ذلك التحرر النسبي لمستخدمي الانترنت في علاقتهم بالمكان والجسد والوضع الاجتماعي والذي هو بالأساس تحرر سلمي بمفهوم فروم يتيح للأفراد نوعاً جديداً من الممارسات متمثل تحديداً في تمكينهم من اصطناع هويات افتراضية وإدارتها بما يتناسب ورغباتهم في التعدد الهوياتي، إن ما يفرزه هذا التلاعب بالهوية على الانترنت من

هويات مستعارة لهو في الأساس شكل للاغتراب الذاتي في العصر الحديث، فالفرد وفي محاولته لان يكون امينا للهوية التي تبناها - أي الهوية الافتراضية المستعارة- فهو في نفس الوقت يتجه نحو الاغتراب الذاتي، وهو نفس ما ذهب إليه الباحث الصادق رابح في كتابه فضاءات رقمية حين اكد ان التمازج بين الذوات الافتراضية والذوات الفعلية له انعكاساته على طبيعة الهوية الفردية، إذ ليس من المؤكد أن القفز "والاستحواذ" على مجموعة من الذوات الافتراضية سيساعد الفرد على تعميق أناه (ذاته)، بل على العكس من ذلك في الغالب ما يقوم بتحييد الانا الفعلي بل وحتى اقصائه فقد تتحول هذه الهوية إلى اغتراب للذات، حيث تنقسم الذات على نفسها وتتحوّل من إمكانية الحرية الداخلية " الحرية السلبية" - كما يسميها إريك فروم- إلى ضرورة الخضوع للظروف الخارجية بعد ان يصاب الانسان بالإحباط وبالتالي السقوط في فخ الاغتراب؛ الذي يجعل الأنا تعيش في وضعية اللايقين الناتج عن انفصال الذات الافتراضية عن نظيرتها الحقيقية.

وبناء على ما سبق ذكره؛ تحاول هذه الورقة البحث في الهوية الافتراضية (بين الزيف والأصالة) من خلال الاجابة على الإشكالية الآتية: ما هي أبعاد ومؤشرات الاغتراب الذاتي للهوية الافتراضية انطلاقا من المقاربة النظرية للاغتراب لدى إريك فروم؟

تساؤلات الدراسة:

- ما مفهوم الاغتراب؟ وما هي الجذور التاريخية له ؟
- ما مفهوم الاغتراب عند إريك فروم؟ وما الفرق بي الذات الزائفة والذات الأصيلة عنده؟
- ما طبيعة الهوية الافتراضية؟ أي ذات أصلية ام ذات زائفة؟
- ما طبيعة الطبع الاجتماعي الافتراضي؟

أهمية هذه الورقة البحثية:

من اجل إيضاح أهمية هذه الدراسة سأستدل بمقولة للمفكر الفيلسوف الالماني "أرفينج هورتيز" الذي أكد أنه: "بمجرد التمكن بصورة سليمة من فهم المعاني والمستويات المختلفة التي استخدم بها وبصدها اصطلاح الاغتراب، فإن علماء الاجتماع سيكون بوسعهم القيام باستخدام الاغتراب على نحو افضل كمتغير جوهري في مناقشة السمات الاخرى للهيكلة والتطور الاجتماعيين"¹،

فاعتماد مفهوم الاغتراب كمفهوم أساسي في هذه الدراسة يضيف نوع من القيمة لها خاصة وانه (أي الاغتراب) هو أزمة الإنسان المعاصر، أيضا ما يضيف ويعزز شرعية الخوض في هذا البحث هو ما ذهب إليه فروم من كون أن التطورات الحديثة أفقدت الانسان احساسه بقيمته وأدت به إلى العجز واللامعنى والعزلة وهي كلها أبعاد للاغتراب، والانترنت يعتبر من اهم سمات التطور التكنولوجي الحديث التي أتاحت فرصة لتبني هوية افتراضية، فهذه الورقة البحثية تسعى لخلق مساحات نقاش بين فكر فروم حول الاغتراب وبين التطورات التكنولوجية ممثلة بالانترنت وماأفرزته من وجود افتراضي (هوية افتراضية)، هذا الاقتراب النظري لاغتراب الهويات الافتراضية، وما سبق واشرنا له هو ما يضيف على دراستنا هذه أهميتها.

أهداف الورقة البحثية:

لعل أبرز ما تسعى إليه هذه الورقة البحثية هو الوقوف على مفهوم الاغتراب خاصة من خلال مقارنة إريك فروم لهذا المفهوم التي سنتبناها كإطار نظري من أجل البحث في ملامح اغتراب الذات الافتراضية

1. في مفهوم الاغتراب:

1.1 المعنى اللغوي للاغتراب:

ان الكلمة العربية "غربة" وردت في لسان العرب لابن منظور لتدل على معنى النوى والبعد؛ فغريب أي بعيد عن وطنه، وأيضا الغرباء هم الأبعاد" واغترب فلان إذ تزوج إلى غير أقاربه"، وعلى هذا النحو فالكلمة العربية تدل على معنيين: الاول يدل على الغربة المكانية، والثاني يدل على الغربة الاجتماعية،² اما المقابل لهذه الكلمة في اللغة الأجنبية؛ فهو الكلمة الانجليزية Alienation والكلمة الفرنسية Aliénation وفي الألمانية Entfremdung وقد اشتقت كل من الكلمة الانجليزية والفرنسية أصلها من الفعل اللاتيني Alienare والذي يعني نقل ملكية شيء ما إلى آخر او يعني الانتزاع أو الإزالة وهذا الفعل مستمد بدوره من كلمة اخرى هي Alienus أي الانتماء إلى شخص آخر أو التعلق به وهذه الكلمة الأخيرة مستمدة في النهاية من اللفظ Alius الذي يدل على الآخر سواء كاسم او كصفة.³

2.1 المعنى الاصطلاحي للاغتراب:

إذا بحثنا عن المعنى الاصطلاحي للاغتراب فإن هذا المصطلح ينطوي على دلالات عديدة أفرزت استخدامات مختلفة اختلفت باختلاف مجال الدراسة، فقد ارتبط استخدامه بالقانون واللاهوت والفلسفة وعلم النفس والطب وعلم الاجتماع، فدلالته القانونية مثلاً هي انتقال أو بيع مال أو حق أما دلالته في علم الاجتماع ترتبط بانحلال الرابطة بين الفرد والآخرين أما عن دلالته الدينية فيمكن ان نلخصها على انها انحلال الرابطة بين الفرد والآلهة، وإذا ما لاحظنا هذه المعاني نجد أنها تراوحت بين السلبية والإيجابية.

وعن هذا التنوع في الاستخدام نجد مثلاً ميخائيل أنوود⁴ في "معجم مصطلحات هيغل" يؤكد انه في أواخر العصور الوسطى في ألمانيا كانت كلمة الاغتراب تشير إلى من يأخذ أو يسرق أمتعة شخص آخر كما تشير إلى الاغتراب العقلي لاسيما الغيبوبة او الذهول لكنها أشارت فيما بعد إلى غربة الأشخاص بعضهم عن بعض، أو غريبتهم عن أنفسهم أي الاغتراب الاجتماعي أو الاغتراب الذاتي، وهو نفس ما ذهب إليه جيل فيريول⁵ في "معجم مصطلحات علم الاجتماع".

وللوقوف أكثر على معنى الاغتراب ارتأينا طرح بعض ما أورده بعض الكتاب والباحثين حول هذا المفهوم؛ فالاغتراب حسب وولمان " wolman يشير إلى الابتعاد وقطع العلاقات أو الصلات القريبة وتمزق الاحساس بالانتماء إلى الجماعة الكبيرة وزيادة الفجوة بين فئات الجماعة الواحدة." ⁶ أما في ذخيرة علوم النفس؛ اوضح كمال دسوقي (1988) ان الاغتراب يشير "إلى انفصال الفرد عن الذات الحقيقية بسبب الانشغال العقلي بالمجردات وبضرورة مجازاة رغبات الآخرين وما تمليه النظم الاجتماعية"⁷ ويعرفه جابر عبد الحميد وعلاء الدين الكافي (1988) في معجم علم النفس والطب النفسي بأنه: "انهيار أي علاقات اجتماعية أو بنية شخصية وفي الطب النفسي يشير المصطلح إلى الفجوة بين الفرد ونفسه والتباعد بينه وبين الآخرين، وما يتضمنه ذلك من تباعد أو غربة للفرد من مشاعره الخاصة التي تستبعد من الوعي خلال المناورات الدفاعية."⁸ وليس ببعيد عن هذه الدلالات التي أوردناها للاغتراب عند بعض الكتاب، ترى انشراح الشال أن الاغتراب وهو " شعور الفرد بأن المجتمع والسلطة لا يحسان به ولا يعنهما أمره

وبأنه لا قيمة له في هذا المجتمع، ويؤدي ذلك إلى فقدان الفرد الحماس والدافع للمشاركة الفعالة.. وقد ربط بعض الباحثين بين الاغتراب وبين الشخصية المتسلطة مما قد يفسر ظهور الجماعات المتطرفة على مستوى العالم في النصف الثاني من هذا القرن⁹ وكخلاصة لما أوردناه سابقا يتبين أن الاغتراب خاصية مميزة للإنسان قديمة ومتأصلة في وجوده وان اغترابه يعني انفصاله عن وجوده الانساني وان المفهوم سواء في أصوله اللغوية أو في المعاجم المتخصصة والاستخدامات المختلفة يفيد معنى الشعور بالانفصال عن الذات أو المجتمع والعالم الموضوعي أو الله.

2. الجذور التاريخية لمفهوم الاغتراب:

يعد الاغتراب ظاهرة قديمة شديدة العمق عريقة الأصل، تعود إلى فجر البشرية؛ فقد كانت أولى مشاعر الاغتراب تلك التي عاشها آدم عليه السلام حين نزل إلى الأرض مغتربا عن الجنة وعن المعية الإلهية، فالوجود البشري وجود مغترب بالقدرة الإلهية قبل الضرورة الفلسفية والنفسية، وهو نفس ما ذهب إليه الباحث محمد خضر عبد المختار جراء مناقشته لعلاقة الاغتراب بالوجود الانساني فقد أكد أن "الوجود الانساني وجود مغترب بالضرورة الإلهية فاغتراب آدم عليه السلام من الجنة وهبوطه للأرض، وكذلك ميلاد كل طفل من رحم الأم يعتبر بمثابة البذرة الأولى للاغتراب."¹⁰

أما إذا ما حاولنا البحث في الرحلة العلمية لهذا المفهوم، نجد انه له تاريخ عريق ارتبط بالكتابات اللاهوتية الاولى وبالبحوث الفلسفية والنفسية القديمة، وعليه يمكن تلخيص مسيرة هذا المفهوم على النحو الآتي:

1.2 مفهوم الاغتراب قبل هيجل:

وخلال هذه المرحلة يحمل مفهوم الاغتراب معاني مختلفة تكمن في سياقات ثلاثة هي: السياق القانوني، حيث استخدم المصطلح في القانون الروماني بمعنى النقل والتسليم (بمعنى انتقال الملكية عن صاحبها وتحولها إلى آخر) والسياق الديني فالمفهوم الكلي للاغتراب يجد تعبيره الأول في الفكر الغربي في مفهوم العهد القديم للوثنية بمعنى انفصال الانسان عن الله وعبادته للأصنام التي صنعها

بيده، والسياق النفسي الاجتماعي بمعنى انفصال الإنسان عن ذاته أو مخالفته لما هو سائد في المجتمع.

2.2 الاغتراب عند هيجل:

يشير العديد من الباحثين والدارسين الذين تناولوا هذا مفهوم الاغتراب إلى أن هيجل هو أول من استخدم هذا المفهوم استخداماً منهجياً مقصوداً، حتى أنه لقب بأب الاغتراب، فهو من أغنى هذا المفهوم، حين اعتبر تاريخ الانسان هو في نفس الوقت تاريخ اغتراب (*Entfremdung الانسان، وهو ما أكدته في "فلسفة التاريخ" حين قال: <<إن ما يسعى العقل، حقيقة من أجله، هو تحقق فكرته، ولكنه في فعل ذلك يقوم بإخفاء ذلك الهدف عن رؤيته، ويكون فخوراً وراضياً عن هذا الاغتراب عن جوهره.>>¹¹

وعلى العموم فإن ما قصده هيجل بمفهوم الاغتراب يقترب إلى حد بعيد من فكرة الصنمية في كتابات اللاهوت القديمة، فالاغتراب من وجهة نظره يكمن في حقيقة أن الفرد لا يقدم نفسه كموضوع لفعله الشخصي، كتفكير، كشعور، كشخص محب، لكن يقدم نفسه وقدراته في الشيء الذي أنتجه، أي أن الانسان يعبد ما تصنع يده بدلاً من أن يلاقي نفسه باعتبارها الخالق،¹² وهو نفس ما ذهب إليه عند تناوله للثقافة كمنتوج للفرد ففي الفصل المعنون "الروح المغتراب عن ذاته" من كتاب "فينومينولوجيا الروح" يربط هيجل بين الثقافة والاغتراب فالفرد يعارض ذاته من أجل الحقيقة الشاملة التي تتمثل في الثقافة لأنها كل ما ينتجه الانسان وان انتاجه مكثف في عنصرين "الدولة والثروة"، الدولة توحد بين الأفراد من خلال الكل والثروة توحد بين الأفراد ولكن من خلال الفرد؛ وهنا يظهر الاستخدام المزدوج لمفهوم الاغتراب من قبل هيجل فهو يستخدم الاغتراب للإشارة إلى علاقة انفصال أو تنافر كتلك التي تنشأ بين الوضع الفعلي والمرء وبين طبيعته الجوهرية، وكذلك يستخدم هيجل هنا الاصطلاح للإشارة إلى التسليم أو التضحية بالخصوصية والإرادة فيما يتعلق بقهر الاغتراب واستعادة الوحدة مرة أخرى،¹³ وفي نفس السياق حاول حليم بركات شرح معنى الاغتراب عند هيجل فأوضح أن هيجل يستعمل هذا المفهوم ليشير إلى "حالة اللاقدرة أو العجز التي يعانيها الانسان عندما يفقد سيطرته على مخلوقاته ومنتجاته وممتلكاته، فوظف لصالح غيره بدل أن يسيطر هو عليها لصالحه الخاص. وبهذا يفقد الفرد القدرة

على تقرير مصيره والتأثير في مجرى الأحداث التاريخية بما فيها تلك التي تهمة وتسهم بتحقيق ذاته وطموحاته"،¹⁴ إذن ووفقا لكل ما سبق يمكن ان نستخلص نقطتين فيما يخص الاغتراب عند هيجل أولاها أن الاغتراب عنده مبني على الفصل بين الجوهر والوجود، وثانيا ان المصدر الأساسي للاغتراب من وجهة نظره هو مصدر ديني ينبع من البعد عن الله ليصل في النهاية إلى الانفصال عن كل شيء وحتى عن نفسه.

3.2 الاغتراب عند كارل ماركس:

يعتبر ماركس من الأوائل الذين درسوا الاغتراب كظاهرة اجتماعية، فمفهوم الاغتراب "دخل مجال الفكر الاجتماعي مع اعمال ماركس الذي حول فكرة هيغل إلى وصف للدولة وعملية يخسر العامة من خلالها انفسهم وعملهم في الرأسمالية. واستقى ماركس هذا المصطلح مبدئيا من المناقشات الفلسفية للهيغليين الشباب"¹⁵، وقد أشار إريك فروم في كتابه "الانسان عند ماركس" إلى أن عملية الاغتراب في فكر ماركس يتم التعبير عنها في العمل، وفي تقسيم العمل، فالعمل يعد مغربا لكونه لم يعد جزءا من طبيعة العامل، الذي لم يعد يحقق ذاته من خلال عمله، وكأن "العمل بالنسبة له -أي لماركس- هو التواصل الفعال للإنسان مع الطبيعة، خلق عالم جديد، بما فيه خلق الانسان لذاته. (الفعالية العقلية بالنسبة لماركس هي دائما في العمل كالفعلية اليدوية أو الفنية.)، إلا أنه عبر تطور الملكية الخاصة وتقسيم العمل يفقد العمل صفته كتعبير عن طاقات الانسان، حيث يتخذ العمل ونتاجه، بعدا منفصلا عن الانسان، وعن إرادته ومشروعه."¹⁶ هذا ويرجع ماركس الاغتراب إلى الملكية الخاصة وإلى تقسيم العمل بالدرجة الأولى ثم إلى تحول قوة العمل إلى بضاعة وهو نفس ما اكده إريك فروم في اقتباس له لفكرة من مخطوطات ماركس أوردها في كتابه "مفهوم الانسان عند ماركس" حيث قال: "إن النتيجة المباشرة لاغتراب الانسان عن نتاج عمله عن فعاليته الحياتية وعن حياته النوعية هي اغتراب الانسان عن البشر الآخرين فعندما يواجه الانسان ذاته فهو يواجه أيضا الآخرين فما هو صحيح عن علاقة الانسان ذاته فهو يواجه أيضا الآخرين. فما هو صحيح عن علاقة الانسان بعمله، بنتاج عمله، وبذاته هو صحيح أيضا عن علاقته بالآخرين بعملهم وبمواضيع عملهم"¹⁷، فالماركسية تذهب في تفسيرها للاغتراب إلى ان الأفراد يغتربون عن أعمالهم

كنتيجة لعلاقات الانتاج ونسق السيادة الطبقي، إذ يحول المجتمع الرأسمالي جميع العلاقات الإنسانية إلى علاقات حسية بين أشياء أو سلع فقيمة الفرد تحدد بموجب السلع التي يملكها لا بقيمة ذاته، كما انه العمل في المجتمع الرأسمالي يعتبر شيئاً خارجياً عن العامل، وليس جزءاً من طبيعته، وكل هذا يخلق عند أفراد المجتمع شعوراً بالاعتراب، إذن فـ " هذا المعنى للوجود كسلعة لا يحس به فحسب من جانب العمال اليدويين الفقراء في الولايات المتحدة المعاصرين ومجتمعات رأسمالية أخرى، ولكن أيضاً في الأنماط الإدارية (البرجوازية الصغيرة) الذين ليسوا في طبقة البروليتاريا نفسها، ولكنهم يجدون انفسهم مستغلين ومهمشين في حين ان المشرفين عليهم (وهم أيضاً أدوات للطبقة الحاكمة) لديهم شعور بأن هذا الامر ضروري"¹⁸.

انطلاقاً مما سبق يمكن القول أن ماركس قد صنف فعلاً من رواد البحث الهادف لتحليل مفهوم الاعتراب على اعتبار أنه هو الذي منحه طابعاً أميريقياً وسوسولوجياً بعد أن كان مفهوماً ميتافيزيقياً ولاهوتياً وذلك من خلال تحليله للعلاقات التي تنشأ في المجتمع الرأسمالي بين الانسان وموضوع عمله وصاحب العمل حيث تناول اغتراب العامل في المجتمع الرأسمالي، ليصل إلى ان الانسان بين مصلحة الشخصية ومصلحة المجتمع يقع فريسة للاغتراب؛ فريسة لاغترابه عن عمله وعن ناتج عمله، وهذا ما يجره أيضاً للاغتراب الاجتماعي وأيضاً الاغتراب الذاتي، فهو يؤكد ان الاغتراب الاقتصادي هو مصدر مظاهر الاغتراب الأخرى.

4.2 الاغتراب في الفكر الوجودي:

إن رواد الفكر الوجودي يرون ان سعي الانسان لتمثاله مع الآخرين وانصهاره في الحشد يسقطه في فخ الاغتراب، فالإنسان الحديث وفقاً للوجوديين يضحي بحريته في مقابل الأمن الزائف الذي يحظى به من جراء امتثاله مع الجمهور وهذا ما يفقده ذاته كإنسان؛ يظهر كل هذا من خلال كتابات الوجوديين فمثلاً المفكر الوجودي كير كيجارد لطالما أبدى عداؤه الشديد للحشد، وهو نفس ما ذهب إليه هيدجر "الذي تابع بإخلاص كير كيجارد في عداؤه للحشد فهو يصف في كتابه "الوجود والزمان" الوجود الانساني المستغرق في الحشد بأنه وجود زائف لأنه يهبط بالإنسان إلى حياة يومية مبتدلة، حياة متشابهة للإنسان الذي يضيع في الحشد يفقد حريته واستقلاله ويصبح رأساً في القطيع،....، بكلمة واحدة إنه

يصبح مجرد نسخة مكررة من كائن بلا اسم أو هوية، هو الناس أو الحشد، وبهذا يقضي الانسان على وجوده الأصيل ويتنازل عن حريته وتفردته ويصبح مجرد شيء بين اشياء، وموضوع بين موضوعات".¹⁹ إذن فالتماثل مع الآخرين قد انتزع - وبكل ما تحمله الكلمة من معاني- كينونة الأفراد فألغى ذواتهم فأضحى كما يقول هيدجر في كتابه "الكينونة والزمان": "كل هو الآخر وما من واحد هو ذاته"²⁰، أيضا إذا ما تفحصنا فكر سارتر نجد انه يؤكد " أن الانسان يمضي في الحياة بوصفه كائنا مغترا يكابد القلق ويحيا نهبا لمشاعر الهجر فهو كائن مهجور واغترابه دائم ولا يمكن قهره وان حدة الاغتراب تزداد في المواقف التي تتميز بقهر الحرية والاضطهاد والتشيؤ واستلاب الذات"²¹، إذن فقد تناولت "الوجودية عدة موضوعات تتصل عميقا بتجارب الاغتراب كمشاعر التعلق بحق الاختيار وما يرافقه من أحاسيس المسؤولية والقلق والعبث والغربة والعجز والالانتماء، ورسمت صورة للإنسان الحديث على انه في الوجود كمسافر فوق بحر لا خريطة له ويعيش في قلق مهمما كان اتجاهه."²² فالفكر الوجودي لطالما اكد أن الوجود الانساني في عصرنا هذا وجود مغرب تنصهر كينونته وذاتيته في امثاله مع الجمهور وفي سيطرت فكر الحشد عليه.

3. في مفهوم الاغتراب عند إريك فروم:

إن المتصفح لكتابات إريك فروم سرعان ما يدرك ان مفهوم الاغتراب قد شكل بحق المحور الأساسي لفكر فروم، فلا يكاد يخلو مؤلف له من إشارة له سواء كان ذلك بصيغته الصريحة أي باستخدامه لمصطلح الاغتراب أو من خلال الاستعانة ببعض المفاهيم التي صاغها والتي إذا ما تفحصناها بعمق نجد انها تحمل دلالات تحيل في واقع الامر لمفهوم الاغتراب؛ كمفهوم الشخصية التسويقية، والحرية السلبية، والذات الزائفة وغيرها من المفاهيم، فقد أشار فروم في كتابه " المجتمع السوية" إلى انه قد وقع اختياره على مفهوم الاغتراب كمنطلق مركزي يمضي من خلاله إلى انشاء تحليل للطبع الاجتماعي المعاصر(أي الطبع الاجتماعي لإنسان القرن العشرين)، فروم إنما يتناول قضايا التغير الاجتماعي وتأثيرها في شخصية الانسان ليؤكد أن التغير من مجتمع على آخر يحتمل أن يؤدي إلى اضطراب في الطبائع الاجتماعية للناس ولا يصبح التكوين القديم للطباع مناسباً للمجتمع الجديد مما يزيد من شعور الانسان بالاغتراب واليأس، وقد حدد فروم سلسلة

من مظاهر الطبع الاجتماعي لهذا العصر نذكر منها على سبيل المثال: مبدأ الامتلاك، ومبدأ التسويق، والامتثال والخيالات النرجسية الجماعية وإغراءات الجماد والأشياء، والواقع المصنع؛ وكلها جوانب وثيقة الاتصال بظاهرة الاغتراب. وللوقوف على كل ذلك حبذنا بداية تحديد مقصود إريك فروم من الطبع الاجتماعي.

1.3 الطبع الاجتماعي:

لقد عرفه فروم في كتابه "المجتمع السوي بأنه: "قوة الطبع الاجتماعي التي يشترك فيها جل أعضاء الثقافة ذاتها على عكس الطبع الفردي الذي يختلف فيه الناس الذين ينتمون إلى الثقافة عينها بعضهم عن بعض."²³ أما عن وظيفة الطبع الاجتماعي فهي تكمن في قولبة الطاقة البشرية مع توفير القنوات الملائمة ضمن مجتمع معين قصد استمرار هذا الأخير في تأدية وظيفته، وعن " الطبع الاجتماعي" المناسب لرأسمالية القرن العشرين أكد فروم انه تكريس للتماثل في مجموعات كبيرة مبنية أساسا على الاستهلاك المكثف والأذواق الموحدة.

2.3 معنى الاغتراب لدى فروم:

الاغتراب كما عبر عنه فروم في كتابه "المجتمع السوي" هو "نمط الخبرة الذي يخو به الشخص أنه غريب. ويمكن للمرء أن يقول إنه قد صار متغربا عن نفسه، إنه لا يخو نفسه على أنه مركز عالمه وخالق أفعاله- بل ان أفعاله وعواقبها قد صارت سادته، الذين يطيعهم أو يمكن حتى أن يعبدهم. والشخص المغترب بعيد عن التماس بنفسه كما بعيد عن التماس بأي شخص آخر. فهو يخو كما يخو الأشياء؛ بالحواس والفهم المشترك، ولكنه في الوقت ذاته لا يكون متوصلا مع نفسه ومع العالم خارجه بطريقة إنتاجية."²⁴ ومن هنا يظهر أن الفكرة السائدة في تفكير فروم عن الاغتراب هي فقدان النفس لذاتها وفي هذا فقد يكتسب ذاتا ليست هي ذاتها الحقيقية أو ما يجب ان تكون عليه حقا، وقد أسهب إريك فروم في استخدام المصطلحات التي قصد بها وصف الاغتراب، فصاغ مفهوم الذات الأصلية والذات الزائفة، ومفهوم الشخصية التسويقية، والحرية السلبية، كما جعل الاغتراب امتداد لفكرة الصنمية وكلها مفاهيم سنستعين بها في دراستنا هذه وسنتناولها فيما يلي بنوع من التفصيل.

3.3 الذات الأصيلة والذات الزائفة:

من المفاهيم التي انتجها فروم في دراسته للاغتراب؛ مفهومي الذات الزائفة والذات الأصيلة؛ وميز بينهما فأوضح أن "الذات الأصيلة هي التي يتسم صاحبها بأنه شخص مفكر قادر على الحب والإحساس والإبداع أما الذات الزائفة فهي التي تفتقر إلى جميع هذه الصفات أو بعضها ويبدو أن مفهوم الذات الأصيلة يرادف عند فروم مفهوم الذات غير المغترية التي حققت وجودها الانساني المتكامل أما الذات الزائفة فهي الذات التي اغتربت عن نفسها وانفصلت عن وجودها الانساني الأصيل".²⁵ وقد تطرق لهذا الأمر في كتابه "الخوف من الحرية"²⁶ من خلال حديثه عن المثل الأصيلة والزائفة وأكد ان الفرق بينهما كالفرق بين الصدق والكذب؛ فعرف المثل الأصيلة بأنها تلك الأهداف التي تسرع بالنمو والحرية وسعادة النفس، اما المثل الزائفة بأنها تلك الاهداف الاضطرارية واللاعقلانية التي هي تجارب جذابة ذاتيا مثل الدافع للخضوع.

والواقع ان فكرة الوجود الأصيل والوجود الزائف تمتد إلى الفلسفة الوجودية، فكير كيجارد يميز بين الوجود في داخل الحشد والوجود المنعزل، فالوجود في داخل الحشد (أي الامتثال والتطابق مع الآخر) هو الوجود الزائف الذي يختبئ وراء جموع المصلين في الكنيسة تارة، أو وراء الحشد في الشوارع تارة أخرى وهو في الحالتين إنما يهرب من المسؤولية ومن عبء الحرية (تلك الحرية السلبية كما سماها فروم) إنه يقول ما يقوله الحشد ويعتق ما يعتنق الحشد أنه الصواب، وبهذا فإن الفرد يذوب في المجموع معتمدا على أن الحقيقة تكون في السير مع القطيع، وهذا هو الاغتراب بمفهوم كير كيجارد والذي يرتبط بعبودية الانسان للمجموع وانفصاله عن ذاته الانسانية الحقة، اما عن الوجود الأصيل فيؤكد كير كيجارد أنه مرادف للوجود المنعزل المتفرد؛ إنه الوجود القادر على تحمل العزلة والقلق وممارسة الحرية.²⁷ أما هيدجر فقد: "عالج فكرة الوجود الزائف والوجود الأصيل بشكل أكثر وضوحا حيث ربط مفهوم "الغربة" وبين الوجود الزائف، وميز بين الوجود الأصيل والوجود الزائف فالأول يعني وجود يضع ذاته ويحدد اتجاهه من خلال القرارات والاختيارات التي تنتهي إليه حقا والتي يمارسها بحرية تامة وبوعي كامل أما الوجود الزائف فهو الوجود الذي يتخلى عن مسؤوليته تجاه

اختيار إمكانياته ويترك لغيره هذه المهمة إنه وجود يخضع للمجهول ويعجز عن أن يقرر ذاته ومستقبله.²⁸

وبالعودة لفكر فروم فقد أكد ان إحلال الأفعال الزائفة محل الأفعال الأصيلة للتفكير والشعور والإرادة يفضي إلى احلال نفس زائفة محل النفس الأصيلة. هذه الاخيرة هي جوهر الوجود الذي تخنقه النفس الزائفة، ففقدان النفس الأصيلة واستبدالها بنفس زائفة تترك الفرد في حالة متوترة من الزعزعة إنه محاصر بالشكوك لأنه هو أساسا انعكاس لتوقع الناس الآخرين عنه قد فقد بشكل ما ذاتيته بسقوطه في فخ سلطة الامتثال والتطابق بغية بلوغ الاستحسان والإقرار المستمر لدى الآخرين، او بمعنى آخر ذات زائفة تسعى للترويج والتسويق لشخصيتها، وبانتمائها إلى سلطات خارجية فإنه يكتسب ذاتا جديدة زائفة غير تلك الحقيقية، وتلك الذات الجديدة تبدي رغبتها إما في التدمير أو في السيطرة وإما في الانتماء أو الامتثال²⁹، وهو ما سنوضحه أكثر في العناصر الموالية من خلال التطرق لفكرة الصنمية وللشخصية التسويقية وللحرية السلبية كمصدر للاغتراب.

1.3.3 الاغتراب ومفهوم الصنمية:

لقد حدثنا إريك فروم عن فكرة الصنمية في علاقتها بمفهوم الاغتراب، وأكد أن "الصنمية" هي جوهر الاغتراب؛ فدراسة فروم لمسيرة المصطلح التاريخية أكدت أن هذا المفهوم عريق وله جذور في التقليد الغربي القديم خاصة فيما تعلق باللاهوت القديم، حيث قد تم الإشارة إلى مفهوم الاغتراب ليس بصريح العبارة ولكن تحت اسم عبادة الأوثان، ففروم يؤكد أن عبادة الأوثان (الأصنام) هي في حقيقة الأمر اغتراب الفرد عن الله، وهو نفس ما ذهب إليه الفيلسوف الألماني لوديفيغ فيوبارخ (Ludwig Feuerbach)؛ حين اعتبر الدين نوع من الاغتراب عن الذات، فبدلا من ان يسيطر الفرد على مخلوقاته، تسيطر هي عليه على اعتبار أن "الانسان يعكس أفضل ما في نفسه من صفات وما لديه من قيم على الألوهة فيصبح الإله صورة للكمال ويتحول الانسان إلى مثال للخطيئة والشر."³⁰ وهو ما عبر عنه فروم في كتابه "مفهوم الانسان عند ماركس" حين أكد ان الفرد يقوم بعبادة الشيء الذي خلقه هو بذاته؛ فيحول ذاته إلى شيء فبدلا من أن يمارس ذاته كفرد خالق فإنه يتواصل معها فقط عبر عبادة الوثن،³¹ إذن فالعبادة الصنمية تتضمن فعل الخضوعي يقربها من مفهوم الاغتراب عن الذات.

2.3.3 الحرية السلبية كمصدر للاغتراب:

إن اطروحة كتاب إريك فروم "الخوف من الحرية" الأساسية هي ان الحرية لها معنيان بالنسبة للإنسان الحديث حرية سلبية وحرية إيجابية؛ فالحرية السلبية تكمن في أنه قد "تحرر من السلطات التقليدية وأصبح "فردا"، لكنه في الوقت نفسه اصبح منعزلا عاجزا وأداة للأغراض القائمة خارجه وانه اغترب عن نفسه وعن الآخرين، زيادة على ذلك إن هذه الحالة تقوض نفسه وتضعفه وترعبه، وتجعله مستعدا للخضوع لأنواع جديدة من القيد، أما الحرية الإيجابية من جهة اخرى فهي متطابقة مع التحقق الكامل لإمكانيات الفرد مع قدرته على ان يحيا بشكل إيجابي وتلقائي"³²، وهكذا يظهر أن الاغتراب وفقا لفروم "يبدأ من حالة عضوية هي انسلاخ الانسان عن الطبيعة التي تساوي أحيانا البيئة الاجتماعية إذ يتحدد جوهر الانسان من خلال علاقته بالطبيعة كجزء منها إلا أنه حين بدا الانسلاخ عنها وخرج من احضان تلك الوحدة الكونية إلى حيز الذات الضيق المعزول بدا يستشعر فقدان التناسق والشعور بالنقص إن هذا الاغتراب وليد تطور حتي للنوع البشري وجرح تولد عن انفصال حتي بين الرحم (الطبيعة) والانسان (الابن)"³³ فالاغتراب إذن هو نتيجة حتمية لتحرر الفرد من الوحدة الكونية مع الطبيعة أي هو نتيجة لما سماه فروم بالحرية السلبية؛ وهنا نصل لفكرة جوهرية في فكر هذا الفيلسوف هي أن مصدر الاغتراب هو الحرية السلبية حيث تصبح هذه الأخيرة حرية مزيفة، لأن الانسان يعتقد أنه صاحب قراراته وصانع ما يقوم به من أفعال في حين انه يفكر ويشعر ويقرر ووفق ما هو سائد وفق ما يريده المجتمع وما تريده السلطات المجهولة.

وإذا ما حاولنا البحث في مفهوم الحرية السلبية فإن فروم "يسمي العملية التي يتم من خلالها تحرر المرء من روابطه الأولية ب" الاضطباع بالصبغة الفردية" وعملية الاضطباع بصبغة فردية هي أساسا ما يعنيه فروم بالحرية السلبية، أو حرية التحرر من، فهي في جانب تساعد على تقوية ونمو النفس وفي الجانب الآخر تخلق شعورا بالانفصال والعجز والقلق"³⁴، مشاعر العزلة والقلق هته دفعت بالفرد إلى الفرار من الحرية نفسها ولاشك في ان الهروب من الحرية غالبا ما ينتهي بخضوع الانسان لأي قوى خارج ذاته يجد لديها نوعا من الامان المفقود، والواقع ان هذا الأمان ليس أمانا حقيقيا با أمان زائف يرتبط بفقدان النفس وبالتنازل

عن الحرية ومن هنا يمكن القول ان الأساليب التي عن طريقها يهرب الانسان من
حريته هي نفسها التي تؤدي به إلى الاغتراب عن ذاته، ولعل ابرز تلك الأساليب:³⁵

-الخضوع للسلطات المجهولة: أي الخضوع للسلطة الباطنية التي تعمل باسم
الواجب والضمير أو الانا الأعلى، والسلطات المجهولة تقترب من مفهوم القهر
المعاصر عند هيربرت ماركيزوز.

-الامتثال أو الخضوع للحشد: فالإنسان المعاصر يهرب من وحدته وعزله إلى
الامتثال؛ والامتثال عند فروم يماثل مفهوم الانسان ذو البعد الواحد عند
هيربرت ماركيزوز

-الخضوع السادي - المازوكي: السادية والمازوكية: وجهان لموقف واحد هو
الشعور بالعجز والنقص فكل من السادي والمازوكي يحتاج لشخص آخر يكمل ما
لديه من نقص: "فالسادي يجعل من كائن آخر امتداد لنفسه والمازوكي يجعل من
نفسه امتدادا لكائن آخر.

3.3.3 الشخصية التسويقية:

تساءل فروم في كتابه "المجتمع السوي" عن طبيعة علاقة الانسان بذاته في
وضع الاغتراب؛ وللإجابة على هذا السؤال صاغ مفهوم جديد هو الشخصية
التسويقية، فوفقا له ما يحكم علاقة الانسان بذاته هو التوجه التسويقي "ففي
هذا التوجه يخر الانسان نفسه بوصفه شيئا يستخدم بنجاح في السوق وهولا
يخر نفسه بوصفه فاعلا نشطا بوصفه الحامل للقدرات الانسانية بل هو مغترب
عن هذه القدرات هدفه أن يبيع نفسه بنجاح في السوق"³⁶ وفقا لفروم فإن
شخصية السوق تفعل بالضبط ما تتطلبه مقاييس النجاح والقبول الاجتماعي،
فالشخصية التسويقية تقوم على ممارسة الشخص لذاته كسلعة، ولقيمتها
"كقيمة تبادلية" لا "كقيمة انتفاعية" أين يصبح الكائن البشري سلعة في "سوق
الشخصيات" وليس هناك فرق بين معايير التقييم في سوق الشخصيات عن
نظيرتها في سوق السلع، فإذا كانت هذه الأخيرة تعرض السلع للبيع فإن الأولى
تعرض الشخصيات وفي الحالين قيمة المعروض هي قيمته التبادلية؛ أين يتوقف
النجاح إلى حد كبير على كيفية إظهار الفرد "شخصيته" أو بمعنى آخر كيف يجعل
من مجموع صفاته وشخصيته "صفقة" مقبولة، فالشخصية التسويقية لم يعد

لصاحبها "أنا" ego كالذي كان لأفراد القرن التاسع عشر، يتمسك بها ويمتلكها ولا يغيرها، وإنما هو يغير هذا "الأنا" باستمرار وفقا للقاعدة "أنا أكون كما تريدني أن أكون"³⁷، فهذه الشخصية التسويقية إذن هو التواجد الدائم في سوق الشخصيات بالصفة المطلوبة.

4. في مفهوم الهوية:

الهوية مفهوم له دلالاته اللغوية واستخداماته الفلسفية والاجتماعية والنفسية والثقافية فقد استخدم هذا المفهوم على انحاء شتى للتدليل على الهوية الفردية وهوية الأنا والهوية الجماعية والهوية العرقية والهوية الثقافية، وصولا إلى الهوية الافتراضية.

وإذا ما بحثنا في المعنى اللغوي نجد ان الهوية كلمة مشتقة من ضمير المفرد (هو) وتعني "الأمر المتعلق من حيث امتيازه عن الأعيار وتقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الموجود"³⁸، هذا ويؤصل مراد وهبة (1979) معنى الهوية بالرجوع إلى اشتقاقات اللفظ في اللغة العربية واللغات الأجنبية، يقول: "أن لفظ "الهوية" في اللغة العربية مصدر صناعي مركب من "هو" ضمير الغائب المعرف بأداة التعريف "ال" ومن اللاحقة المتمثلة في الـ "ى" المشددة وعلامة التأنيث وفي الفرنسية والانجليزية واللاتينية يعني لفظ "id-idem" ضمير الإشارة للغائب بمعنى ذاته، ويستعمل هذا الضمير للدلالة أحيانا على الاختصار وعدم التكرار عند الإشارة إلى شيء محدد."³⁹ أما عن المعنى الاصطلاحي للهوية نجد مارتن هيدجر يشير إلى: "أن الانسان لكي يكون ذاته لابد ان يفكر في الوجود وعليه ألا يسمح للأطر أن تشكله كيفما تشاء لأنها -الأطر- من إبداعه وهي ليست إلهة من هبات الوجود يكشف بها عن نفسه بشكل يتماشى مع طبيعة العصر."⁴⁰ وكانه يريد أن يؤكد انه الهوية توجد من خلال التفكير بالوجود، وهو نفس ما ذهب إليه ديكاريت من خلال مبدئه الشهير الكوجيتو "أنا أفكر إذن انا موجود" الذي أجاب من خلاله على سؤال الهوية.

اما إريك فروم في كتابه "المجتمع السوي" أشار إلى ماهية الهوية من خلال تعريفه للإنسان حيث أكد انه: "الحيوان الذي يمكن ان يقول "أنا" الذي يمكن أن يدرك نفسه بوصفه وجودا منفصلا، والكائن الحيواني الذي هو في داخل

الطبيعة، ولا يتجاوزها، ليس مدركا ذاته، وليس به حاجة إلى الإحساس بالهوية.⁴¹ وهكذا ربط فروم الاحساس بالهوية بالانفصال وتجاوز الطبيعة وبالتحرر من الروابط الأولية وبإدراك الفرد أنه كائن متميز ومختلف ومنفصل عن العالم الخارجي ومن ثم فهو في حاجة لتكوين مفهوم عن ذاته وبحاجة إلى ان يشعر وان يقول "أنا أكون أنا"، لهذا نجد الطفل الذي لازال لم يقطع صلته بأمه لا يدرك ذاته، وتكون إحدى آخر الكلمات التي يتعلم استخدامها هي "أنا" في الإشارة إلى نفسه بمثابة ولادة لهويته.

ويسقط فروم نظريته هذه على تاريخ الجنس البشري ويشير إلى أنه: "في نشوء الجنس البشري تعتمد الدرجة التي يدرك فيها الإنسان انه ذات منفصلة على المدى الذي خرج فيه من العشيرة والمدى الذي نما فيه التفرد، ويمكن لعضو العشيرة البدائية أن يعبر عن إحساسه بالهوية في صيغة "أنا نحن" وهو لا يستطيع بعد أن يتصور انه "فرد" يوجد بمعزل عن الجماعة."⁴²

1.4 جدلية الهوية والاعتراب:

الهوية كما يقول حسن حنفي هي: "تعبير عن الحرية، الحرية الذاتية، الهوية إمكانية قد توجد وقد لا توجد، إن وجدت فالوجود الذاتي، وإن غابت فالاعتراب"⁴³، فقد تتحول الهوية إلى اغتراب للذات، حيث تنقسم الذات على نفسها وتتحول من إمكانية الحرية الداخلية "الحرية السلبية" - كما يسميها إريك فروم- إلى ضرورة الخضوع للظروف الخارجية بعد ان يصاب الانسان بالإحباط ويسيطر الاعتراب على موضوع الهوية.

فبعد ان ينفصل الانسان عن روابطه الأولية ويكسر وحدته مع الطبيعة تتشكل هويته الذاتية هذه الهوية التي سرعان ما تختفي من جراء الخوف من العزلة والوحدة، لتحل محلها هوية جديدة ناتجة عن التماثل والتطابق فكما يقول فروم "بعد التخلص من الروابط الاولية وفي محاولة للإحساس الفردي بالهوية سقط الانسان في فخ تحديدات الهوية المرتبطة بمفهومات الامة والديانة والطبقة والمهنة كالقول انا أمريكي مثلا، وهذا ما يؤدي إلى خيرة التماثل، إي إلى اني لست مختلفا وأني مثل الآخرين، وهكذا يمكنني أن أشعر أنني "أنا" أنا - "كما تريدني" وبدلا من هوية العشيرة ما قبل الفردانية، تنمو هوية قطيعية

جديدة، يعتمد فيها الاحساس بالهوية على الاحساس الذي لا شك فيه بالانتماء إلى الجمهور⁴⁴، وهكذا يظهر أن الجنس البشري إنما يعيش جدلية هوية/إغتراب، متتالية كلما لامسنا وادركنا حلقة منها تداعت واختفت الحلقة الأخرى.

2.4 التكنولوجيا الدين الجديد:

إن الانسان وفقا لفروم يبدع اوثانا يسجد لها وأصناما يعبدها وهنا يكمن جوهر الاغتراب عنده ففي عملية الاغتراب عند فروم يتنازل المرء عن نفسه إزاء استسلامه لما صنع، وهناك أشياء كثيرة في حياة الانسان المعاصر يمكن أن تصبح أصناما - كما يراها فروم- لها يخضع الانسان، وإلها يقدم نفسه قربانا ولعل التكنولوجيا هي الصنم الجديد الذي يقدم له انسان القرن المعاصر نفسه، فقرننا الحالي كما يشير فروم في كتابه "الانسان المستلب وأفاق تحرره" قد طور دينا جديدا سماه "دين التقنية".⁴⁵

فقد خلق الانسان عالما من الأشياء بشرية الصنع كما لم يوجد من قبل وبنى آلة اجتماعية معقدة لإدارة الآلة التقنية التي بناها ومع هذا فإن هذا الخلق الكلي يقف فوقه وعليه وهو لا يشعر انه مبدع ومركز بل انه خادم للـ "غولم" - der golem من أشهر روايات الكاتب النمساوي غستاف ميرنيك (1868-1932) وقد ظهرت سنة 1915 وهي مستوحاة من أسطورة قروسطية عن حاخام اخترع مخلوقا ليخدمه وسماه غولم- الذي بنته يداه. وكلما كانت القوى التي يطلق العنان لها أعظم، ازداد إحساسه بالعجز بوصفه انسانا وهو يواجه نفسه بقواه المتجسدة في الأشياء التي خلقها، مغتريا عن نفسه ويمتلكه خلقه، وقد فقد ملكيته لذاته،⁴⁶ وهكذا يغترب الانسان تحت وطأة الحضارة وهيمنة التكنولوجيا وسيطرة الآلة، ولعل أبرز غولم مرتبط بالتكنولوجيا ابتدعه الانسان هو الهوية الافتراضية التي سنحاول التطرق لها وبنوع من التفصيل -المرتبط بإشكالية الدراسة- في العناصر الموالية.

3.4 الهوية الافتراضية:

أو كما يسميها البعض الهوية الرقمية يعرفها إتششاد (Etzscheid.2009) بأنها: "مجموع الأثار (المكتوبة او المحتويات السمعية او البصرية أو رسائلنا في المنتديات، او بيانات الاتصال أو اعمال الشراء أو المعايينة....) التي نتركها خلفنا

بوعي أو بغير وعي خلال إبحارنا على الشبكة ومبادلاتنا التجارية أو علاقاتنا المتبادلة في المواقع المخصصة لذلك".⁴⁷ ف"الانترناتيون" إذن يظهرون وجودهم (أي الوجود الافتراضي) من خلال علامات نصية، صوتية، وبصرية؛ فإذا كانت الهوية الواقعية تستمد معناها من الوعي بالذات والتميز الفردي عن الآخرين، فإن الهوية في الفضاء الافتراضي تحدد من خلال عنوان البريد الإلكتروني أو الاسم المستعار أو الصورة الرمزية التي يقدمها "الانترناتي" وغيرها من الأشياء التي قد لا تعكس هويته الحقيقية أو لا تقدم القدر الكافي من المعلومات لمعرفة حقيقته، وهو نفس ما ذهب إليه علي محمد رحومة حين عرف الهوية الافتراضية بأنها: "السمات والمواصفات التي يقدمها الفرد الطبيعي للآخرين عبر الانترنت، فتكون عملية الاتصال تتم بين ثلاثة أطراف وليس طرفين وهي: الشخص العادي والهوية الافتراضية والأشخاص الآخرين".⁴⁸ وهكذا يظهر ان الفرد يتمتع بقدر من الحرية في عرض هويته الافتراضية ف "يمكنه ان يقدم نفسه كما يشاء وعلى النحو الذي يريده وهو السلوك الذي قد يتعذر عليه في المجتمع الواقعي، حتى ان بعض العلماء اطلقوا على العوالم الافتراضية اسم "ورشات الهوية"⁴⁹، وهذا كناية عن مرونة الهوية الافتراضية وعن حرية التلاعب بالهوية في الفضاء الافتراضي.

5. مؤشرات زيف التواجد الافتراضي:

إذن وكما وسبق ان أشرنا في تعريف الهوية الافتراضية فإن شبكات التواصل الاجتماعي يمكن اعتبارها كورشات للهوية، وكفضاء مستحدث لتشكل الذات، بإتاحتها حرية خلقت "نوعا جديدا من الممارسات متمثلة تحديدا في تمكين الأفراد من اصطناع هويات افتراضية وإدارتها بما يتناسب ورغباتهم في التعدد الهوياتي".⁵⁰ أي اتاحتها إمكانية استعارة وتقمص وتجريب أشكال مختلفة للهويات، وقد تناول الباحث الصادق رابع هذه الفكرة في كتابه "فضاءات رقمية" حين أكد الامكانية التي يحظى بها "الانترناتي" والتي توفر له فرص استعارة وتجريب ما شاء من ذوات دون ان يتعرض للعقاب بل ان الامر يذهب أبعد من ذلك؛ "فالذوات التي يتقمصها في الفضاء "الانترناتي" هي في اغلب الاحيان وخلافا لتلك التي تتشكل منه ذاته (أنا) (حسب رؤية ميد) متناقضة مع الأدوار الفيزيائية والاجتماعية التي يمكن أن تقوم بها في الحياة الفعلية...، وعليه يجب قراءة استعارة الذوات وبالتوازي كإعادة تخليق"⁵¹ أي كخلق لذات زائفة، تحل محل الذات الأصلية،

ومن اجل الوقوف على زيف هذا التواجد الافتراضي سنحاول التطرق للطبع المجتمعي للمجتمعات الافتراضية.

1.5 الطبع الاجتماعي للمجتمعات الافتراضية:

سنتناول من خلال هذا العنصر بعض من جوانب الطبع الاجتماعي للمجتمعات الافتراضية، مستدلين في ذلك بما حدده فروم من جوانب الطبع الاجتماعي للمجتمع الرأسمالي والتي تؤكد في جملها الاغتراب الذاتي للفرد داخل هذا المجتمع؛ وهناك نقطة مركزية في هذا الجانب لابد ان نشير لها وهي ان فروم في سياق دراسته للطبع الاجتماعي للمجتمع الرأسمالي أكد انه مجتمع استهلاكي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى؛ حيث يتم فيه استلاب الفرد ذاتيا من خلال النج به في عوالم استهلاكية لا يكون مطالب فيها بالتفكير أو الابداع ولا حتى بالإحساس وبالحب أي يتمثل كذات زائفة مرغمة على الاستهلاك ومن آليات تحقيق ذلك الخضوع للسلطة المجهولة أي للتمائل الآلي، والسرور الاستهلاكي، والشخصية التسويقية، والصدقة الاغترابية... وغيرها من الجوانب التي تحيل إلى الطبع المجتمعي غير المنتج.

1.1.5 السلطة المجهولة والتمائل الآلي:

أكد فروم ان ابرز ما يميز الطبع المجتمعي للمجتمع الرأسمالي هو خضوع الأفراد لسلطة مجهولة هي التماثل الآلي، أو اتخاذهم صفة الانسان ذو البعد الواحد على حد تعبير هيربرت ماركيزوز، وهذا ما يجعله فرد مغترب بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فقد اصبحت ذاته مستلبة ومستغرقة في وجودها المستلب، ولم يعد هناك سوى بعد واحد، إنه موجود في كل مكان وفي كل الأشكال.⁵² والذوات الافتراضية في المجتمعات الافتراضية لا تخرج عن هذا المعنى؛ فالفرد وبخلقه لهوية افتراضي يتوهم أنه يتحرر من الأشكال الصريحة للسلطة أي سلطة الروابط التقليدية، ليسقط في فخ نوع جديد من السلطة هي التي سمينها التماثل الآلي، فمن أهم الميكانيزمات والحيل الدفاعية التي تتيحها الانترنت في سعيها للتحرر من السلطة التقليدية، هو الاستعانة بالهوية المستعارة التي تسمح للفرد بأن يتصرف بنوع من الحرية إلا أن ما يمكن ملاحظته على هذه الحرية انها حرية سلبية بمفهوم فروم، فالذات أحيانا تسلك أشبه بالشيء بل في الحقيقة تصبح شيئا ممثلا في ذات افتراضية يتنازل من خلالها الفرد عن نفسه الفردية

ليصبح آلة متطابقة مع الملايين الآخرين من الآلات المحيطة به، وهذا ما يمكن ان نتلمسه من خلال تصفح عينة من الصفحات العشوائية على الفيسبوك.

2.1.5 الشخصية التسويقية:

كنا قد تحدثنا عن الشخصية التسويقية سابقا وحددنا معناها عند فروم والذي تناولها في محاولة لدراسة علاقة الانسان بذاته في الحالة الاغترابية، وإذا حاولنا معرفة علاقة الانسان بتواجده الافتراضي أي بهويته الافتراضية فسيتجلى بكل وضوح مفهوم الشخصية التسويقية كيف لا وكل هدف الهوية الافتراضية هو التماثل بهوية تلقى إقرار واستحسان القطيع (الحشد)، أي تبني صورة مثالية في عين الآخر من خلال التطابق معه، وتكون هذه الهوية بذرة لذات مغتربة فقد اشارت كارين هورني إلى أن: "الاغتراب ينشأ عندما يطور الفرد صورة مثالية عن ذاته بلغ من اختلافها عما هو عليه حد انه توجد هوة عميقة بين صورته المثالية وذاته الحقيقية وحينما يتشبث المرء بالاعتقاد بأنه هو ذاته المثالية، فإنه لا يعود قادرا على ادراك ذاته الحقيقية".⁵³ فغالبا ما يتمثل الأشخاص الرقميون بما يرغبون ان يتمثلوا به، أي يتظاهرون بالأشياء التي يحبونها في الحديث وفي التعريف بأنفسهم وبآرائهم وأفكارهم وغير ذلك. وليس شرطا أن يكونوا كما هم في واقع الأمر. وهذا لا ينفي أن كثيرا منهم يحاولون أن يكون صادقا في كل ذلك، ولكن الأمر المشترك في معظم المتمثلين افتراضيا هو تمثيلهم بما يريدون من الآخرين أن يروههم به⁵⁴، ولعل أبرز ما يرغب الآخرون في رؤيته هو التطابق معهم لأجل كل هذا اصطبغت ممارسات الفرد على الويب بنهج لإدارة الأعمال، فقد قام ببناء صورة وشرع في إدارة السمعة e-réputation، فأصبحنا الآن نتحدث عن الشخصية كعلامة تجارية⁵⁵: وهنا لا يسعنا إلا تبني مفهوم "الشخصية التسويقية" لمفهوم لوصف الهوية الافتراضية.

3.1.5 تشيؤ العلاقات الانسانية:

من ابرز جوانب الطبع المجتمعي الذي ساد المجتمع الرأسمالي وأيضا يسود المجتمع الافتراضي "تشيؤ" العلاقات الإنسانية والذي يقصد به تحول الانسان إلى مجرد سلعة قابلة للبيع أو الشراء مما يفقده سمته المتعالية كإنسان ومن ثم تغدو أيضا علاقاته بالعالم علاقة تملك وحيازة، وزيف هذه العلاقات يكمن في كون ان الفرد إنما يسعى لحيازة علاقات ضمن آلية هروبية تضمن له البقاء

قرب الآخرين هروبا من الوحدة، وهنا ينتقل الانسان من حالة اغتراب الانفصال إلى اغتراب الخضوع⁵⁶ أي من التحرر من سلطة العلاقات التقليدية إلى اغتراب الخضوع للقطيع، والوجود الافتراضي يكرس الهروب من العلاقات الشخصية نحو علاقات سطحية في بيئة افتراضية في موقف شبيه لما حدثنا عنه فروم.

الحديث عن تشيؤ العلاقات يجرنا أيضا للحديث عن الصداقة الاغترابية⁵⁷ التي هي بالأساس جانب من جوانب اغتراب العلاقة الشخصية، التي أضحت حسبها الصداقات لا تتشكل على أساس الرغبة الفردية والتجاذب بل يحددها عدد الصداقات المشتركة، والانتماءات المتماثلة كما هو الحال مع العلاقات المشكولة عبر شبكة التواصل الاجتماعي الفيسبوك.

4.1.5 محبة المبادلة:

لقد تحدثنا في العنصر السابق عن تشيؤ العلاقات الاجتماعية وفي واقع الأمر فإنه حتى المحبة تم تشيؤها فأصبحنا نتحدث عن محبة المبادلة التي حلت محل محبة الامتلاك، ولكن الأهم هو ان الدافع إلى المبادلة قد مس أيضا مجال العلاقات الشخصية المتبادلة ف"في كثير من الاحيان لا يكون الحب إلا مبادلة مستحبة بين شخصين يحصل على معظم ما يمكن ان يتوقعاه وهما يأخذان في الاعتبار قيمتهما في سوق الشخصية"⁵⁸ وهذا ما نلاحظه من خلال الهوية الافتراضية وما تشكله من علاقات ففي الفضاء الافتراضي ليس المهم طبيعة العلاقة التي تربطك مع الآخرين ولا مقدار المحبة التي تجمعكم بقدر ما يهمكم تملك من علاقات أي كثافة شبكة علاقاتك.

وإذا ما بحثنا في ممارسات الهوية الافتراضية على الفيسبوك فيما يتعلق بمحبة المبادلة لوجدنا سوق للمشاعر واقصد هنا تلك الملصقات التي خصص لها الفيسبوك متجر أوجد فيه أيقونات للتعبير عن المشاعر وعن التعابير فأصبحت البهجة أيقونة ضاحكة، وأصبح الحب يعبر عنه من خلال كبس زر الإعجاب، وحلت الابتسامة المصنعة (ملصقات الأيقونات الضاحكة) محل الضحك الحقيقي، وحلت الثثرة الجوفاء محل الكلام التواصلي.

5.1.5 الاغتراب السروري:

من أشكال الاغتراب عن المسرات نذكر السرور الاستهلاكي الذي نقصد من ورائه أن السرور أضحى محض استهلاك، ونستعين هنا بالمثل الذي اورده فروم في حديثه عن هذا الامر في كتابه "المجتمع السوي" حين اعتبر التقاط الصورة الفوتوغرافية تعبيراً عن الادراك البصري الاغترابي وبالتالي محض استهلاك، فالسائح لا يحمل عن رحلته سوى سلسلة اللقطات الخاطفة التي اقتنصتها الكاميرا والتي أضحت بديلاً عن التجربة السياحية التي كان من المفترض أن يعيشها لكن السرور الاستهلاكي منعه من ذلك، أيضاً من أشكال السرور الاستهلاكي هو قتل الوقت الذي وفرناه ونحن مسرورين عندما انقضائه، وقد أكدت العديد من البحوث اننا نحيا تجاربنا الحياتية من خلال صور التقطناها بغية إلحاقها بصفحاتنا الافتراضية على شبكات التواصل الاجتماعي، وأيضاً أن الابحار في الفضاءات الافتراضية ليس سوى نوع من قتل الوقت.

خاتمة:

لقد حاولنا من خلال هذه الورقة الوقوف على ما سمي بأزمة الانسان المعاصر أي الاغتراب من خلال الحديث عن الهوية الافتراضية وما تخلقه من وجود زائف يحيل إلى الاغتراب الذاتي في شكله الحديث الذي يتوافق ومتطلبات المجتمع الافتراضي، فالانسان ومن خلال تبنيها لهوية افتراضية خلق "غولم" جديد وجعله امتداد لذاته فأسقط كل ما يملك من مثل عليه، ليصير خلقه هذا هو الوثن الذي يعبده ويقدم نفسه له قرباناً في حالة قريبة لما وصفه فروم بدين التقنية المفضي للاغتراب الذاتي، ففي الوقت الذي يبني في الفرد هويته الافتراضية يكون ينفصل عن الحياة الجوهريّة ويتخلّى عن انسانيته متجهاً صوب الوجود الزائف الذي يفرض عليه التماثل الآلي مع الحشد، الذي يسعى من خلاله إلى التماثل حسب ما يريده الآخرون فتصبح هويته هذه شخصية تسويقية كل ما يهمها هو ان تكون شخصية ذات صفقة رابحة في سوق الشخصيات، وكل هذا يوصلنا نتيجة مفادها أن الهوية الافتراضية ليست سوى ذات زائفة، والفرد وفي محاولة منه لأن يكون أميناً لهذه الهوية يتجه نحو الاغتراب الذاتي.

اليومامش:

1. -محمد سليمان حسن، "الاغتراب في الفكر الفلسفي"، المعرفة، العدد 343، 01 أبريل 1992، ص 24.
2. -عبد اللطيف محمد خليفة، مقياس الاغتراب، القاهرة: دار غريب، 2005، ص 13.
3. -عبد اللطيف محمد خليفة، مقياس الاغتراب، المرجع نفسه، ص 8-9.
4. -ميخائيل أنوود، معجم مصطلحات هيغل، تر: إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000، ص 79.
5. -جيل فيريول، معجم مصطلحات علم الاجتماع، تر: أنسام محمد الأسعد، بيروت: دارمكتبة الهلال، ط1، 2011.
6. -عبد الحميد محمد الشاذلي، الاغتراب النفسي لدى الشباب الجامعي، القاهرة: مجموعة اجيال لخدمات التسويق والنشر، ط1، 2008، ص 16.
7. -عبد اللطيف محمد خليفة، مقياس الاغتراب، مرجع سابق، ص 12.
8. -عبد اللطيف محمد خليفة فضالي، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، 2003، ص 30-31.
9. -انشرح محمد الشال، مدخل إلى علم الاجتماع الاعلامي، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1985، ص 172.
10. -عبد اللطيف محمد خليفة فضالي، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، مرجع سابق، ص 20.
11. -*استعمل هيغل التعبير الألماني (entfremdung) للإشارة لمفهوم الاغتراب.
12. -إريك فروم، مفهوم الانسان عند ماركس، تر: محمد سيد رصاص، دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، ط1، 1998، ص 65.
13. -أنظر: إريك فروم، مساهمة في علوم الانسان (الصحة النفسية للمجتمع المعاصر)، تر: محمد حبيب، اللاذقية: دار الحوار، ط1، 2013، ص 124.
14. - محمد سليمان حسن، مرجع سابق، ص. ص: 44 - 45.
15. - حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية (مناهات الإنسان بين الحلم والواقع)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2006، ص 37.
16. - جون سكوت، علم الاجتماع (المفاهيم الأساسية)، تر: محمد عثمان، ط1، بيروت: الشبكة العربية للابحاث والنشر، 2009، ص 48.
- إريك فروم، مفهوم الانسان عند ماركس، مرجع سابق، ص 66.
17. -إريك فروم، مفهوم الانسان عند ماركس، مرجع نفسه، ص 70.
18. - آرثر أيزابجر، النقد الثقافي (تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية)، تر: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويس، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2003، ص 92.
19. -حسن حماد، الانسان المغترب عند إريك فروم، القاهرة: دار الكلمة، 2005، ص 101.
20. -مارتن هيدجر، الكينونة والرمز، تر: فتحي المسكيني، بنغازي: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2012، ص 255.
21. -ابراهيم عيد، الاغتراب النفسي، القاهرة، د.د.ن، 1990، ص 11.
22. -حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية (مناهات الإنسان بين الحلم والواقع)، مرجع سابق، ط1، ص 45-46.
23. -إريك فروم، المجتمع السوي، تر: محمود منقذ الهاشمي، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1، 2009، ص 187.

24. -إريك فروم، المجتمع السوي، المرجع نفسه، ص 232
25. -عبد اللطيف محمد خليفة فضالي، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، مرجع سابق، ص 42
26. -أنظر:إريك فروم، الخوف من الحرية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، بيروت:المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 1972، ص ص 211-213.
27. -حسن حماد، مرجع سابق، ص ص 121-122.
28. -عبد اللطيف محمد خليفة فضالي، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، مرجع سابق، ص ص 41-42.
29. -محمود حسن اسماعيل، العلاقة بين استخدام طلاب الجامعة للانترنت والاغتراب الاجتماعي لديهم، قسم الإعلام وثقافة الطفل، معهد الدراسات العليا للطفولة، جامعة عين شمس: <http://www.askzad.com>، يوم: 15/01/2016، ص 13.
30. -حليم بركات، مرجع سابق، ص 38.
31. -إريك فروم، مفهوم الانسان عند ماركس، مرجع سابق، ص ص 53-45.
32. -إريك فروم، الخوف من الحرية، مرجع سابق، ص 214
33. -أحمد حسن، "الاغتراب والحداثة"، مجلة العصور الجديدة، القاهرة:سينا للنشر، العدد 03*01 نوفمبر 1999، ص 60.
34. -حسن حماد، مرجع سابق، ص 136
35. -حسن حماد، مرجع سابق، ص ص 149-154.
36. -إريك فروم، المجتمع السوي، مرجع سابق، ص 254.
37. -إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، تر: سعد زهران، عالم المعرفة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989، ص ص 139-140
38. -جمال محمد احمد سليمان: مارتن هايدجر(الوجود والموجود)، دار التنوير، 2009، ص 259
39. -محمد ابراهيم عيد ابراهيم، الهوية والقلق والابداع، القاهرة: دار القاهرة للنشر والتوزيع، ط 1، 2002، ص 17
40. -جمال محمد احمد سليمان؛ مرجع سابق، ص 275.
41. - إريك فروم، المجتمع السوي، مرجع سابق، ص 168
42. -إريك فروم، المجتمع السوي، المرجع نفسه، ص 169.
43. -حسن حنفي، الهوية، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط 1، 2012، ص 11.
44. -إريك فروم، المجتمع السوي، مرجع سابق، ص 170.
45. -إريك فروم، الانسان المستلب وأفاق تحرره، تر: حميد لشهب، فيديبرانت، الرباط، 2003، ص 93.
46. -إريك فروم، المجتمع السوي، مرجع سابق، ص 236.
47. Fanny Georges, « L'identité numérique sous emprise culturelle. De l'expression de soi à sa standardisation », Les Cahiers du numérique 2011/1 (Vol. 7), p 32.
48. -علي محمد رحومة، علم الاجتماع الآلي (مقاربة في علم الاجتماع العربي والاتصال عبر الحاسوب)، عالم المعرفة، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2008، ص 470.
49. -علي محمد رحومة، نفس المرجع، ص 467
50. -الصادق رايح، فضاءات رقمية قراءات في المفاهيم والمقاربات والرهانات، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1، 2003، ص 124.

51. -الصادق رايح، المرجع نفسه، ص 129.
52. -عزيز الزرق ومحمد الهلالي، دفاتر فلسفية (نصوص مختارة)، الشخص، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط 1، 2010، ص 85
53. -نصر الدين جابر ومسعودة بن علية، "الاغتراب النفسي وتدني قيمة الذات"، مجلة علوم الانسان والمجتمع، العدد 14، مارس، 2015، ص 143.
54. -علي محمد رحومة، مرجع سابق، ص 145.
55. - Samy Ben Amor, Lucia Granget, « L'identité numérique. De la construction au suicide en minutes », *Les Cahiers du numérique* 2011/1 (Vol. 7), p103.
56. -معلومات أكثر انظر: ناجح محمد محمود شاهين، مرجع سابق، ص 68.
57. -معلومات أكثر حول هذا المفهوم أنظر: إريك فروم، المجتمع السوي، مرجع سابق، ص 275.
58. -إريك فروم، المجتمع السوي، مرجع سابق، ص 261.